

جدلية الولاية في سياق سورة المائدة

• الدكتورة ابتسام السيد عبد الكريم المدني

المقدمة: حدود البحث ومشكلته

بسم الله والحمد لله الأول قبل الإنشاء والباقي بعد فناء الأشياء ، والصلوات التامات الباقيات على اشرف من خلق وما خلق محمد ﷺ .
وبعد :-

فقد تناولت الأقسام والدراسات والتفاسير آيات الولاية ، واجتهدت أيما اجتهاد في تحليل وتعليل تفرّق هذه الآيات في سورة المائدة. ولتعرس الأمر نجد -أحياناً- أنّ هناك من ينفى الدلالة السياقية للقرآن الكريم بسبب ذلك التفرق. أو على الأقل نفيها في هذه السورة ، وذلك للصعوبة التي يجدها في ربط سياق السورة بقضية تحريم الأطعمة مع التبشير بإكمال الدين وإتمام النعمة والرضا بالإسلام ديناً ، مع تواتر الأخبار بأن المراد بذلك الإكمال وذلك الإتمام وذلك الرضا الإعلان عن ولاية الإمام علي (عليه السلام). فتلك مشكلة علمية جدية بالبحث والتدبر ، وهذا ما حاول البحث أن يلجّه مستعينا بالقوة الإلهية ، وببركات أهل بيت الرحمة.

أما الجدلية فمصطلح عدّل ثم دخل اللغة العربية ليكون من الاشتقاقات المولدة. ولكن جذوره وأصوله من صميم اللغة العربية وثقافتها الأصيلة. فالجدلية مأخوذة لغة من الجدل: شِدَّةُ الفُتْلِ. وَجَدَلْتُ الحَبْلَ أَجْدَلُهُ جَدْلًا إِذَا شَدَدْتُ فُتْلَهُ وَفُتِلْتَهُ فُتْلًا مُحْكَمًا.^(١) ثم صار الحوار الذي فيه تباين لوجهات النظر يسمى جدلا ، تشبيها بفتل خيوط الحبل ، فكل رأي يلتف على رأي مناظره. وصار ذلك فَنًّا أُقيمت له المجالس في الحضارة الإسلامية ، وسميت بمجالس المناظرات.^(٢) والجدلية: تعني تبادل الحجج وأخذ المفهوم الاصطلاحي من الفعل اليوناني (dialegein) الذي يعني الكلام الموصل إلى اكتشاف المعاني المجردة. والجدلية عند أفلاطون جدليتان: الجدلية الأولى صاعدة (وهي تلك التي تنطلق من الواقع الملموس لتصل إلى مفهوم الخير). والجدلية الثانية هابطة (بمعنى أنها تنطلق من مفهوم الخير المجرد لتعود إلى الملموس أو اليومي). وعند أرسطو: هي ما يُسعى به إلى

١. ينظر لسان العرب مادة جدل

٢. ينظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب. الأستاذ طه احمد إبراهيم. دار الحكمة بيروت (١٩٣٧). ص. ٨. وينظر: تاريخ العرب في الجاهلية وعصر الدعوة الإسلامية. د. رشيد الجميلي

التوصل إلى البرهان الحقيقي. ثم تطور مفهوم الجدلية حتى صار المصطلح مرافقاً للنحو والصرف وعلم البلاغة. بل إن بعضهم (كالقديس توما الإكويني ودونوس سكوتوس) كان يربط المصطلح بالوصف والتحليل للخطاب المعقد. ثم جاء هيغل ليكسب المصطلح مفهوماً فلسفياً ، إذ جعل الجدلية قانوناً يحدّد مسيرة الفكر والواقع عبر حلّ الإشكاليات و المتناقضات لتكون محركاً للتاريخ وللطبيعة ولل فلسفة ، حتى أصبحت الجدلية تعني كلّ فكر يأخذ بعين الاعتبار، حركة الظواهر التاريخية وتناقضاتها. و عُرِّفَت "الجدلية" بأنها الحركة التدرجية للنظريات.^(١)

من هذا يمكننا أن نعرّف الجدلية بأنها: (ترابط خفي بين الظواهر التي يعتمد بعضها على بعض. و لا يتوصل إليها إلا بعد الظفر بمكونات تلك الظواهر) ومن هذا نتوصل إلى أنّ اكتمال الفهم لكل ظاهرة يوجب المتابعة الجدلية لما يترابط معها من ظواهر أخرى ، مع كدّ الذهن للوصول إلى الروابط الخفية بينها.

و أما الولاية: ففي اللغة ((ولي: في أسماء الله تعالى: الوليُّ هو الناصرُ، وقيل: المتولّي لأُمور العالم و الخلائق القائمُ بها... و كأنّ الولاية تُشعر بالتدبير و القدرة و الفعل، و ما لم يجتمع ذلك فيها لم ينطلق عليه اسم الوالي. و قيل: الولاية... بالكسر، السلطان.))^(٢)

وأمّا السياق: فساق سَوْقاً و سَياقاً يَسُوقُ الشيء إلى المكان الذي يريد و التَساؤُقُ التابع، فالمُساوِقة: المُتَابِعة كأنّ بعضها يسوق بعضاً، لضعف كل واحدة بمفردها ولاختلاف بعضها عن بعض إذا لم يتساوقا.^(٣)

فسياق النصوص: الترابط بينها والدلالات المتأتية من ذلك الترابط. ومن هذا نعلم أن البحث سوف ينظر إلى آيات الولاية الواردة في سورة المائدة من خلال السياق القرآني ؛ أي من خلال ترابط النصوص التي يلمس البحث بان الدلالة تضعف بدونها ، ثم ينظر إلى العلاقة الجدلية أي الروابط الخفية بين تلك الآيات في ثلاثة مباحث :

الأول: جدلية نصوص سورة المائدة. ليتناول الروابط الخفية بين نصوص سورة المائدة من خلال سياقها.

المبحث الثاني: جدلية الوحدة الموضوعية لآيات الولاية. ليكشف عن الروابط الخفية في تكوين وحدة الموضوع بين الآيات الثلاث من خلال سياقها القرآني.

١. ينظر: الموسوعة الحرة (ويكيبيديا) على شبكة الانترنت

٢. لسان العرب: ولي

٣. ينظر: لسان العرب: سوق

المبحث الثالث : جدلية نصوص الولاية في مراكزها من السورة ليسلط الأضواء على الروابط الخفية بين تلك الآيات و مواقعها من السورة ، ومن خلال السياق القرآني أيضا .
وختاما ليس لنا الا ان نقول : ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾
البقرة ٢٨٦
والله ولي التوفيق

المبحث الأول: جدلية نصوص سورة المائدة

تميزت سورة المائدة بترابط جدلي بين عباراتها وآياتها ونصوصها ترابطا يمكن أن يتخذه الدارس درساً من دروس إعجاز القرآن.^١ فقد بدأت السورة أمرة المؤمنين بالوفاء بالعقود. ليقودنا التساؤل عن تلك العقود و بطريق المنطق إلى العقد الأكبر الذي تعاقدت عليه الفطرة الإنسانية مع الله سبحانه وتعالى ، والمتمثلة في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾^(٢) و جاء في التفسير أن معنى ذلك نصب الأدلة على ربوبية الله سبحانه و وحدانيته و شهدت بها بصائرهم التي ركبت فيهم حتى صارت البصيرة مميزة بين الضلالة و الهدى ، و حتى صارت الفطرة الإنسانية شاهدة على نفسها مقرّة بوحدانية الله سبحانه ، باحثه عنه في داخلها وفي خارجها.^(٣) وحتى حين تتهجن الفطرة بنوائب الزمن من الفكر المنحرف فلا بد لتلك الفطرة في لحظة لحظة من لحظاتها تبحث عن الإله. وقد تحاول خداع تلك الفطرة بألهة مزيفة ، أمثال الأصنام أو السلطان أو الأهواء و غير ذلك كثير. المهم أن تعاقدنا حصل بين الرب والعبد فتعاقد الرب على الربوبية وتعاقد العبد على العبودية. والربوبية المطلقة التي تتصف بها الذات الإلهية تعني الخلق والقيام به في الدنيا والآخرة. وبهذا تقتضي ربوبية الله سبحانه أن يضمن للإنسان ما يأتي :

- الكينونة الفردية .
- الكينونة النوعية .

١. ينظر : بحثنا الموسوم بـ (البنية الخطابية الفنية في مقدمة سورة المائدة) مجلة الفتح ، العدد (١٦) الصادر في (٢٠٠٣) كلية التربية الاساسية / جامعة ديالى .

٢. الأعراف ١٧٢

٣. ينظر : الكشف عن حقائق غوامض التنزيل ، ج ٢ ، ص : ١٧٧

- الكينونة الاجتماعية.

- الكينونة الحاكمة

فلما أمر الله سبحانه وتعالى في سورة المائدة بالوفاء بالعقود أردف ذلك الأمر مباشرة بإحلال بهيمة الأنعام دلالة على توفير الطعام وهو عنصر أولي لضمان الكينونة الفردية. ثم تحدث عن إحلال الطيبات من النساء من المؤمنات ومن أهل الكتاب ، ليبين انه جل جلاله قد ضمن أيضا العنصر الأساس لكيونة النوع الإنساني واستمراره. ثم أقر التزاوج و التطاعم مع أهل الكتاب بمواصفاتها التي يعرفها الفقه الاسلامي^(١) ليرسم المنهج الاجتماعي الإنساني الحر. وبهذا ضمان العلاقة الإنسانية الاجتماعية ، مع حرية المعتقدات والتعايش معها. ثم أوضح الولاية و معاييرها لضمان الحياة القانونية فلا تقدم ولا حضارة بلا قانون و حاكمية. ثم عرّج على القانون ووجوب احترامه ، وشمل قوانين اجتماعية و أخرى طعامية وأخلاقية ، وختم بالحاكمية التي بين أنّ بها كمال الدين و تمام النعمة. وبذلك يثبت أنّه جل جلاله قد أوفى بعقد الربوبية من جانبه ولم يبق إلا أن يفِي العبد بعقد العبودية من جانبه أيضاً.

ولما تم التعريف بالوفاء الرباني راح النص القرآني يعلم العبد كيف يفِي بالعقد من جانبه ، فقدم التعليم بالتهيؤ إلى الصلاة فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ {٦} ﴾ . فمعلوم ان الصلاة أهم ركن من أركان الإسلام ، فبدأ بها. ثم عرضت السورة نماذج تراثية من خيانة العقد تمثلت بما يأتي :

١. التعاقد بين موسى ﷺ وقومه على بنود مذكورة واشهد عليها شهود ووضع شرطاً جزائياً على الناكل. وبين أنّ قوم موسى ﷺ نقضوا العقد وحل بهم الجزاء الديني.^(٢)
٢. وكذلك النصارى قد نقضوا العقد مع عيسى ﷺ وحل بهم الشرط الجزائي.^(٣)

١. ينظر: التبيان في تفسير القرآن، ج ٣، ص: ٤٤٤

٢. قال تعالى: وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ❖ فِيمَا نَقَضَهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ {١٣} المائدة

٣. قال تعالى: وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ {١٤} المائدة

٣. ويعرض عقداً آخرًا بين موسى ﷺ وقومه لدخول الأرض المقدسة ، وبين نقضهم العقد و نزول الشرط الجزائي بهم.^(١)

٤. قصة ابني آدم اذ تعاقدوا على القربان ونقض قاييل العقد وقتل أخاه ونزل به الشرط الجزائي.^(٢)

٥. وهناك العديد من التعاقدات منها منح فرصة جديدة لأهل الكتاب.^(٣) ومنها توثيق للتعاقد مع المؤمنين.^(٤)

والمدقق يستطيع الوصول إلى مصداقية تسمية السورة بسورة العقود.^(٥) إذ تتابعت سورة المائدة بتحاوير عجيبة بين نصوصها فكل تحاور بين نص وآخر يضيف دلالات ومقاصد جديدة الى دلالات ومقاصد المفردات والتراكيب. مما يجعلنا نطمئن بمجدلية الآيات في هذه السورة.^(٦)

المبحث الثاني: جدلية الوحدة الموضوعية لآيات الولاية

تواترت الأخبار بنزول ثلاثة نصوص من سورة المائدة في ولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ. وهي كما يأتي:^(٧)

١. قال تعالى: وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أذكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَأَتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ❖ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمَقْدَسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ❖ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ❖ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ اللَّهَ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ❖ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ❖ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ❖ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ {٢٦} المائدة

٢. قال تعالى: وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأُ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ {٢٧} لئن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدَيْ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ {٢٨} إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ {٢٩} فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ {٣٠} فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِي سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ {٣١} المائدة

٣. قال تعالى: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرَّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {١٩} المائدة

٤. قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ {٥٤} المائدة

٥. ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص: ٢٢١

٦. تنظر تفاصيل ذلك في بحثنا: البنية الخطابية الفنية في مقدمة سورة المائدة.

٧. ينظر كتاب الغدير - الغدير - الشيخ عبد الحسين أحمد الأميني النجفي ج ٨/٠١

١. قوله تعالى: ﴿...الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا...﴾^(١) وتواترت الاخبار بنزولها في حج الوداع^(٢)

وهي آخر عمره الشريف صلى الله عليه وآله وسلم ، ليبين لامته كمال دينهم وأوضح لهم سبيلهم ، وتركهم على قصد الحق ، وأقام لهم عليا (عليه السلام) علما وإماما ، وما ترك شيئا يحتاج إليه الامة إلا بينه.^(٣) فقد ورد انه عليه السلام قال لعلي (عليه السلام): (... طوباك يا علي ، أنزلت علي في وقتي هذا آية ذكري وإياك فيها سواء...) ^(٤) ثم تلي الآية المباركة.

٢. أما قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾^(٥) فتواترت الاخبار عن نزولها بأمر المؤمنين حين تصدق بالخاتم وهو راع.^(٦) وهذا كان في المدينة المنورة قبل حج الوداع ، لأنه من المتواتر أيضا أن آية إكمال الدين وإتمام النعمة آخر ما نزل من القرآن.^(٧)

٣. قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾^(٨) نزلت في حج الوداع قبل الإعلان عن إكمال الدين وإتمام النعمة.^(٩)

هذا التسلسل بالنزول له علاقة جدلية بالفضاءات النفسية والظرفية في حينها. فلما كانت الرسالة المحمدية في طور تناميها كانت الفضاءات النفسية والظرفية للمؤمنين غنية بولاية الله والرسول عليه السلام. ولما وسعت وامتدت على البسيطة بصورتها الأفقية وفي عمق النفس المؤمنة التي

١. المائة ٣

٢. ينظر: الكافي ١ / ١٣٤ / ١. وينظر عيون أخبار الرضا (عليه السلام) ١ / ٢١٦ / ١. وكذلك: البرهان في تفسير القرآن، ج ١، ص: ٣٢٣

٣. البرهان في تفسير القرآن، ج ٢، ص: ٢٢٠

٤. شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، ج ٢، ص: ٣٥٢

٥. المائة ٥٥

٦. ينظر:

٢٧٢٠ - تفسير جامع البيان - أبي جعفر محمد ابن جرير الطبري ج ٦ / ٣٩٠: وينظر: أسباب نزول القرآن (الواحدى): الواحدى، علي بن أحمد (القرن: الخامس) وكذلك: البرهان في تفسير القرآن، ج ٢، ص: ٣٢٤ / تاريخ الطبع: ١٤١١ هـ

٧. صحيح البخارى - أبي عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى ج ١ / ١٧ / ١ / حديث: ٢٢٧٨

٨. المائة ٦٧

٩. الغدير - الشيخ عبد الحسين أحمد الأميني النجفي ج ١ / ٨

أنجبت أنفس مؤمنة ينتظرها زمن قد يتجاوز زمن الصحبة الحمديّة ، راحت تلك الفضاءات تتسع مفتقرة إلى الامتداد الحمدي ، ولا سيما حين صارحهم الرحمن بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾^(١) فكانت آية الولاية غني لذلك الافتقار وأمانا وثقة للنفوس المؤمنة. والظريف في الأمر أن كلمة (وليكم) بهذه الإضافة ، أي إضافة الولي إلى كاف المخاطبة وميم الجماعة لم ترد إلا مرة واحدة في القرآن الكريم كله وفي هذا الموضوع. ناهيك عن استعمال أداة الحصر (إنّما) ، واستعمالها بصيغة المفرد على أنّ المشار إليه جمع (المؤمنون). إلا أنّ التفاصيل المرشحة لهذا الجمع تفضي إلى المؤمن الواحد المتصف بتلك الصفة ذات العناصر المشار إليها: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾^(٢) حيث تُركت جدلية الحدث هي الحاكمة. فلم تصرح الآية باسم الشخص ، ودلالة ذلك ((إنّ الله لا ينظر إلى صوركم بل ينظر إلى قلوبكم))^(٣) ولم يكن المعيار القريب المجردة من الرسول ﷺ فهناك عمومته ﷺ. إنّما تركت الآية لتكون المعيار المسكوك غير القابل إلى الزيادة والنقصان. ثم فلينظر في المحيط لمعرفة المنطبق على ذلك المعيار. وكان الانطباق الأوحى على مر الزمان (علي بن أبي طالب) عليه أفضل الصلاة والسلام.^٤ وقد اعترض البعض بقولهم ان الصورة مجازية ((والزكاة هنا: لفظ عامّ للزكاة المفروضة، و التطوع بالصدقة، و لكلّ أفعال البرّ، إذ هي منمّية للحسنات، مطهّرة للمرء من دنس السيئات، ثم وصفهم سبحانه بتكثير الركوع، و خصّ بالذكر لكونه من أعظم أركان الصلاة، و هي هيئة تواضع، فعبر عن جميع الصلاة كما قال سبحانه: وَ الرَّكْعَ السُّجُودَ [الحج: ٢٦] هذا هو الصحيح.، و هو تأويل الجمهور، و لكن اتفق مع ذلك أنّ عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) أعطى خاتمه، و هو راعع قال السديّ: و إن اتفق ذلك لعلّيّ، فالآية عامّة في جميع المؤمنين.))^٥ فان سلّمنا بمجازيتها وشاعريتها كان تحققها في عليّ ﷺ على وجه الحقيقة أكثر مصداقية في الانطباق من الصورة المجازية. فلو قلنا أنّ فلانا قتل نفسه حبّا - على سبيل المجاز - وهو حي

١. الزمر ٣٠.

٢. المائدة ٥٥.

٣. حديث نبوي شريف. ينظر - الفصول المهمة في أصول الأئمة - الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي ج ١/ ٢٢٨.

٤. قال الزمخشري: في الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، ج ١، ص: ٦٤٩ ((وإنها نزلت في عليّ كرم الله وجهه حين سأله سائل وهو راعع في صلاته فطرح له خاتمه «١»، كأنه كان مرجا «٢» في خصره، فلم يتكلف لخلعه كثير عمل تفسد بمثله صلاته. فإن قلت: كيف صح أن يكون لعلّيّ رضي الله عنه واللفظ لفظ جماعة؟ قلت: جيء به على لفظ الجمع وإن كان السبب فيه رجلا واحداً، ليرغب الناس في مثل فعله فينالوا مثل ثوابه، ولينبه عليّ أن سجية المؤمنين يجب أن تكون على هذه الغاية من الحرص على البرّ والإحسان وتفقد الفقراء، حتى إن لزمهم أمر لا يقبل «٣» التأخير وهم في الصلاة، لم يؤخروه إلى الفراغ منها.))

٥. جواهر الحسان في تفسير القرآن، ج ٢، ص: ٣٩٦.

يرزق بيننا ، فبال تأكيد الكلام يكون اقل انطباقاً من حقيقة أنّ فلان مات حياً موتاً حقيقياً. ناهيك عن انها لم تتكرر بعد ذلك. وجدلية عدم التكرار تتضافر مع توحد التعبير بـ(وليكم) وبقاء الصفة مفتوحة..وكانت هذه الآية تفرض المعايير المشروطة بالولاية. ثم تركت المدة مفتوحة من يوم التصديق بالخاتم وكان ذلك بعد نقض اليهود للعقد مع النبي ﷺ إلى يوم غدير خم وهو العام العاشر للهجرة. و لم يتحدث التاريخ عن تكرر المتصف بها. وكأن تلك المدة كانت مدة إعجاز من أن يتعرض احد مثل هذا الموقف ، وينبثق منه التصرف بتلك الدافعية.

ولما حان وقت إعلان الولاية يوم غدير خم أمر الله سبحانه رسوله الأعظم ﷺ بالتبليغ. وكان الأمر قرآناً أيضاً ، فالقرآن يصدق بعضه بعضاً ، و القرآن لا شك فيه. فقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾^(١) و الدارس يمكنه أن يلحظ بيسر جدلية الموضوع في الآيتين كليهما. إذ بدأت آية معايير الولاية ؛ بولاية الله ، وهذا يعني أن الولاية المطلقة لله سبحانه. ثم أنّ هذه الولاية المطلقة أمرت الرسول ﷺ - وهو الولي الثاني بحسب تسلسل الآية - ان يولي الطبقة الثالثة وهم المؤمنون المتصفون بتلك الصفة. ولما ذكرت في آية الولاية ولاية الرسول محمد ﷺ بعد ولاية الله سبحانه كان الأمر بالتولية بوساطته ﷺ وليس بقرآن مباشر. وهذا شبيه بما يصطلح عليه في لغتنا المعاصرة بإعطاء الصلاحيات بطريقة التبليغ. فقد أعلنت معايير الولي ثم ترك الأمر مدة من الزمن ولم تنطبق تلك المعايير إلا على شخص علي (عليه السلام) ، وهذا كله كان إلفات نظر ، ثم كان الأمر التبليغ بعد ان تمت الحجة كاملة. ونودي الرسول ﷺ بـ: (يا أيها الرسول) أي بالصفة نفسها عند إعلان ولاية الله والرسول. أي لم ينادى بصفاته الأخرى مثل يا أيها النبي أو يا محمد. ثم بينت الآية أنّ المطلوب تبليغه شيء انزل سابقاً: ﴿بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ ومعلوم ان الفعل (أنزل) فعل ماض فالتبليغ بشيء انزل إليه من قبل وفي زمن مضى وليس في الوقت ذاته ، فلو كان المطلوب تبليغه قد نزل حال الأمر أو بعد الأمر مباشرة لما استعمل الفعل الماضي ، بل المضارع المستمر ، أي يا أيها الرسول بلغ ما ينزل عليك ، وهذه ترابط واضح بين آية الولاية وآية التبليغ. ثم إنّ في الأمر هذا إيضاح بان الرسالة الألهية رسالة متكاملة مترابطة بأجزائها ترابطاً غير منفك ، فان ضل الإنسان حلقة من حلقاتها كان في ضلال مبين. قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ نُوْمِنُ بِبَعْضِ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ {١٥٠} أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ {١٥١}﴾^(٢) لذلك كان الإيضاح التفصيلي في الآية: ﴿ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا

بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧) ﴿ أي بلغ ﴾ (جميع ما أنزل إليك و أي شيء أنزل إليك غير مراقب في تبليغه أحداً ، و لا خائف أن ينالك مكروه و إن لم تَفْعَلْ و إن لم تبلغ جميعه كما أمرتك... فلم تبلغ إذا ما كلفت من أداء الرسالة و لم تؤد منها شيئاً قط. و ذلك أن بعضها ليس بأولى بالأداء من البعض ، فكأنك أغفلت أداءها جميعها ، كما أن من يؤمن ببعضها كان كمن لم يؤمن بكلها ، لإدلاء كل منها بما يدل به غيرها. و كونها كذلك في حكم الشيء الواحد لا يكون مبلغاً غير مبلغ ، مؤمناً به غير مؤمن.))^(١). وفي هذا دليل آخر على ان النقص الوحيد في ذلك الدين كان الإعلان عن الولي ، فلو كان هناك شيء آخر غير التبليغ هذا لما قرر بان لم تبلغ فما بلغت الرسالة لوجود نواقص اخرى. والله يعصمك من الناس ، وان الله لا يهدي الذين يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض. - كما مر عند الزمخشري - والجميل في هذا الأمر أنّ الله أوضح ؛ أنّ خطورة الإيمان ببعض الرسالة والكفر ببعضها الآخر أكثر من خطورة الكفر المطلق ، بدليل أنّ الله سبحانه عندما أمر الرسول ﷺ بقوله: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ... ﴾^(٢) لم يقل ((والله يعصمك من الناس)) بينما يتوقع المتلقي أنّ الحاجة الى العصمة من الناس حينذاك أكثر ، فهم قلة يخافون ان يتخطفهم الناس قال تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾^(٣) فلم يشتد عود الدعوة بعد ولم يتجاوز عدد المسلمين النزر اليسير ، بينما عند الأمر بالتبليغ كان عدد المسلمين كبيراً جداً والكل يبدو تحت اللواء وان الكل يؤمن بقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ لנסاء ٦٥ و لكن القضية لا تبدوا بهذه السهولة واليسر. فكانت الاستجابة المحمدية للأمر الرباني بتبليغ النداء الهادر (من كنت مولاه فهذا علي مولاه)^(٤) فالمتأمل يجد أنّ التبليغ كان إعلاناً للفائز بمعايير الولاية التي اشترطتها آية الولاية. فكان لا فائز إلا عليّ (عليه السلام). وبذلك كمل الدين وتمت النعمة و رضي بالإسلام ديناً و لو لم ينزل الله سبحانه وتعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ...﴾ لقالها المؤمنون على البدهة والفطرة بعد ذلك التبليغ. فقد كان تعلق الظرف الزماني بيوم الغدير تعلقاً واجباً و بيان إكمال الدين وإتمام النعمة والرضا بالإسلام ديناً ضرورة قصوى و نتيجة حتمية لآية الولاية وآية التبليغ.

١. الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، ج ١، ص: ٦٥٩

٢. الحجر ٩٤

٣. الأنفال ٢٦

٤. الغدير - الشيخ عبد الحسين أحمد الأميني النجفي ج ١ / ١٣٥٠

المبحث الثالث: جدلية نصوص الولاية في مراكزها من السورة.

الملاحظ للآيات موضوع الدرس يجدها مترابطة ترابطا وثيقا حتى ليحق له أن يظن بأنها ثلاث آيات متتالية في وجودها القرآني ؛ آية الولاية ، ثم آية التبليغ ثم آية إكمال الدين وإتمام النعمة. لكن الحقيقة غير هذا ، إنما نص إكمال الدين جزء من الآية الثالثة في سورة المائدة ، وآية معايير الولي تسلسلها خمس و خمسون من السورة. وآية الأمر بالتبليغ تسلسلها سبع وستون من السورة. وهذا شيء مثير للدرس والتنقيب ، فما المراد بتثيت هذه الوحدة الموضوعية والواضحة وجعل كل جزء في ذلك المكان المحدد بالضبط؟

بين المبحث الأول الترابط الوثيق بين مركبات العبارات في سورة المائدة ، وبين الدلالات السياقية المتأتية من ذلك التجاور في العبارات. وكان لآيات الولاية النصيب الأوفى من تلك الدلالات.

أولا : نص : إكمال الدين. قال تعالى : ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ هذا النص ورد بعد حشد من المفاهيم ؛ بدأ الأمر بالوفاء بالعقود ، وبالتفاصيل التي مرت في المبحث الأول. وكذلك بيان وفاء الله سبحانه بعقد الربوبية المتمثل جزء منها في ضمان الكينونة الفردية بتحليل بهيمة الأنعام : ﴿أَحَلَّتْ لَكُمْ بِهَيْمَةِ الْأَنْعَامِ﴾^(١) ثم إعطاء خصوصية الإحرام وما يشيع أجواء القدسية والسلام لكل الكائنات الحية في زمان ومكان معينين : ﴿غَيْرِ مُجَلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ ورد في التفسير ان التحريم ينطبق ابتداء على عملية الصيد ذاتها. فالإحرام للحج أو للعمرة ، تجرد عن أسباب الحياة العادية و توجه إلى الله في بيته الحرام ، الذي جعله آمنا فلا تنبسط كف إلى أي حي من الأحياء. وهي فترة نفيسة ضرورية للبشرية جمعاء أن تستشعر فيها صلة الحياة بين جميع الأحياء في واهب الحياة و تأمين فيها على ذاتها و تؤمن على الذوات الأخرى و تتخفف من ضرورات المعاش التي أحل من أجلها صيد الطير و الحيوان و أكله لترتفع في هذه الفترة على مألوف الحياة و تتطلع إلى هذا الأفق القدسي. ثم التذكير ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ فمصدر الحكم الإرادة الحاكمة المتفردة بالحكم الحق.^(٢) ثم إعلان الحرية العقائدية ، ووجوب عدم الإخلال بها أبدا : ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ واحترام القانون : ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ فلا نسيء بعد اليوم. ثم الوفاء بالعقود العبادية ﴿وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ﴾ ثم نشر الأخلاق الإسلامية في التسامح وعدم اخذ الثأر بعد

١. قال صاحب الميزان ((لا ريب أن الإنسان كسائر الحيوان و النبات مجهز بجهاز التغذي يجذب به إلى نفسه من الأجزاء المادية ما يمكنه أن يعمل فيه ما ينضم بذلك إلى بدنه و ينحفظ به بقاؤه)) ينظر : الميزان في تفسير القرآن ، ج ٥ ، ص : ١٨٤

٢. في ظلال القرآن ، ج ٢ ، ص : ٨٣٨

القوة والتمكن ﴿ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ﴾ ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ﴾ ثم ذهب الخوف من الجوع وفوات فرصة كسب العيش فهم يمتنعون عن الصيد بإرادة واطمئنان فالله سبحانه قد ضمن لهم طعامهم ، وبكل ثقة يمثلون للأمر وبعد التحلل من الإحرام يعودون إلى الصيد الطيب من الطعام. ثم بيان البنية الأخلاقية الأساسية في الإسلام. وهي التعاون على البر والتقوى ، وعدم التعاون على الإثم والعدوان. ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ ثم التقوى العامة وبها أمان من شدة عذاب الله. ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ ثم صقل الذوق الإنساني في تناول الطعام وتساميه عن الطعام الحيواني: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلٍ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَقَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ ثم تهذيب الذوق المعنوي للإنسان ، ورفع عن تناول ما ذبح تقرباً للصنم ، تسامياً بعقيدة التوحيد وحفاظاً على التكريم الإلهي للإنسان ، فهذا المكرم من ربه لا يقتات على أنعام أحلها الله سبحانه له بكرامة تعطى له تقرباً للصنم: ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى التُّصْبِ ﴾ ثم الأكل من كد اليمين وعرق الجبين لا بالإيكال إلى الحظ والطالع بالاستقسام بالأزلام. ولا مسوغ للخروج عن الملة بتلك الأعمال الرخيصة: ﴿ ذَلِكُمْ فِسْقٌ ﴾ ^(١) فالיום يأس الذين كفروا من إسقاط دينكم بانتظار ريب المنون كما منوا انفسهم. ^(٢) فأوفوا بعقدكم الأكبر أيها المؤمنون فقد كمل الدين بولاية علي عليه السلام فهو الذي يقيم الصلة الدائمة مع الله سبحانه عن طريق ما زقه الرسول صلى الله عليه وآله من العلم زقاً ، وهو الذي يؤتي الزكاة فلا يخاف في حكومته جوعاً ولا أذى ، وهو الراكع لله خاضعاً له فهو الربط الدائم بمصدر التشريع. فالיום تيسرت لكم الأمور، فحتى تلك المحرمات تباح عند الاضطرار لان المؤمن في حكومة عادلة لا يتجانف فيها إلى إثم إلا بالاضطرار: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ

١. يقول سيد قطب ((أقرب ما يتجه إليه الذهن في معنى «شعائر الله» في هذا المقام أنها شعائر الحج والعمرة وما تتضمنه من محرمات على الحرم للحج أو العمرة حتى ينتهي حجه بنحر الهدى الذي ساقه إلى البيت الحرام فلا يستحلها الحرم في فترة إحرامه لأن استحلالها فيه استهانة بجرمة الله الذي شرع هذه الشعائر. وقد نسبها السياق القرآني إلى الله تعظيماً لها ، وتحذيراً من استحلالها.

و الشهر الحرام يعني الأشهر الحرم وهي رجب ، وذو القعدة ، وذو الحجة والحرم. وقد حرم الله فيها القتال - وكانت العرب قبل الإسلام تحرمها- ولكنها تتلاعب فيها وفق الأهواء فيؤجلونها- بفتوى الكهان ، أو زعماء القبائل القوية... والهدى وهو الذبيحة التي يسوقها الحاج أو المعتمر وينحرها في آخر أيام الحج أو العمرة ، فينهي بها شعائر حجه أو عمرته... وعدم حلها معناه ألا ينحرها لأي غرض آخر غير ما سبقت له... بل يجعلها كلها للفقراء. والقلائد. وهي الأنعام المقلدة التي يقلدها أصحابها... علامة على نذرها لله... ومنها الهدى... كذلك حرم الله آمين البيت الحرام... حججاجاً أو غير حججاج.. وأعطاهم الأمان في حرمة بيته الحرام. ثم أحل الصيد متى انتهت فترة الإحرام ، في غير البيت الحرام ، فلا صيد في البيت الحرام.)) ينظر: في ظلال القرآن، ج ٢، ص:

أَتَمَّتْ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَحْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ فالأجواء أجواء عيد؛ إيقاعاً ودلالة، وقد لمس هذا حتى عند غير المسلمين فقد ورد في صحيح البخاري ((أن رجلاً من اليهود قال {لعمر بن الخطاب} يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقررؤها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً قال أي آية قال اليوم اكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا قال عمر قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي صلى الله عليه وسلم وهو قائم بعرفة يوم الجمعة))^(١).

ثانياً: آية الولاية قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾^(٢) إذا رجعنا إلى الآيات السابقة لهذه الآية نجد أن السياق القرآني يوجهنا إلى مجموعة آيات متشابكة الدلالة توضح البنية العامة للتوراة والإنجيل والقرآن الكريم. أما التوراة والإنجيل فان الله سبحانه انزلهما فيهما هدى ونور، يصدق بعضهما بعضاً.^(٣) وأما القرآن الكريم فانه مصدق لهما ومهيمن عليهما.^(٤) أي رقيباً على سائر الكتب لأنه يشهد لها بالصحة والثبات، ويحذر النص من الانحراف عما جاء من الحق تبعاً لأهواء أهل الكتاب فلكل جعلنا منكم أيها الناس شريعةً وطريقاً واضحاً في الدين تجرون عليه.^(٥) ولذلك فعلى الرسول صلى الله عليه وآله أن يحكم بما انزل الله فما كان منه مماثلاً فلأنه مصدق له، وما كان مخالفاً فلأنه مهيمن عليه. والتحذير من التهاون بحجة توحيد الناس، فلكل منهم شريعة ومنهاج، ولو أراد الله أن يجعلهم أمة واحدة قسراً لفعل. ثم يحذر المؤمنين من تولي اليهود والنصارى.^(٦) والمتأمل في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٧) ولذلك تجد يا محمد فقط الذين في قلوبهم مرض

١. صحيح البخارى - أبى عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى ج ١ / ٢٢٧٨

٢. المائدة ٥٥

٣. قال تعالى: إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَابُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوُا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ {٤٤} المائدة وقال تعالى: وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَأَنبَأْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ {٤٦} المائدة

٤. قال تعالى: وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّبًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ {٤٨} المائدة

٥. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ج ١، ص: ٦٤١

٦. ينظر: جامع البيان في تفسير القرآن، ج ٦، ص: ١٨٠

٧. المائدة: ٥١

يسارعون لهم لأنهم قلقون غير مطمئنين بالله ، يعتمدون على الموازين الحدسية فيرسومون للكسب مع أي الفريقين.ولكن الله سبحانه حين يأتي بالفتح يصبحوا نادمين لأنهم خسروا كل شيء.^(١) وأجواء النص كلها توحى بالتحذير من تلك الأمور فيما بعد حياة الرسول ﷺ. إذ الأفعال المستعملة دالة على الاستقبال (تَتَّخِذُوا - يَتَوَلَّوْهُمْ) وبين السبب هو أنهم ضد الإسلام يتحدثون على عدائهم ، والأكثر من هذا أنهم لا يرضون أن يكونوا أولياء على مسلمين إنما من يتولونه من المسلمين يحرفونه حتى يصبح منهم.وذلك لأنهم ظالمون - لم يضعوا الأمور في نصابها الحق. ثم يبين حقيقة دوام الدين وبقائه وان ارتد المخاطبون عن الدين فان الله سيأتي بقوم يحملون مقومات الدين الحق. ثم بعد تلك التحذيرات والمكاشفات يعطي صفات الولي ومعاييرها: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ {٥٥} فان كان الأمر مجازياً وتحقق على وجه الحقيقة فصاحب الانطباق الحقيقي أولى بالمصداق من الذي تحاكيه مجازاً وإشارة وترميزاً. ثم ورود قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْعَالِبُونَ ﴾ {٥٦} فيه إشارة إلى التفرق على هذه الولاية ، فبين إن الذي يأتى بما أمر الله سوف يكونون حزبا وهذا الحزب هو الحزب الغالب.ثم يبدأ النداء بالتحاور العاطفي بعد التحاور العقلي.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ {٥٧} وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوعًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ {٥٨} لا تتخذوا أولياء ممن يهزأ بدينكم. ثم يتحول السياق من الحديث عن الإعداد لما بعد حياة الرسول ﷺ إلى مخاطبة أهل الكتاب في وقتهم ذاك. وبهذا بين أن المكان المركزي لوضع هذه الآية رؤية مستقبلية لما بعد حياة الرسول ﷺ ، بكل سلبياتها ومحاذيرها. فوضع الحل المثالي وهو تولي من حمل تلك المعايير. ثم فتح الزمن ليقيس المسلمون ما إذا اتصف احد بها غير علي (عليه السلام)؟!

ثالثاً: آية التبليغ قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾^(٢) فان رجعنا بعدها بأيتين سنجد قوله قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخْلُنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ {٦٥} الآية شرطية ، شرطها أن يؤمن أهل الكتاب ويتقوا ، وجزاؤها تكفير السيئات ودخول جنة النعيم. ولكن أداة الشرط (لو) حرف امتناع لامتناع ، أي لم يتحقق الشرط فما تحقق الجزاء. ثم الآية الأخرى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكْلَوْا مِنَ الْجَزَاءِ. ﴾

١. ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص: ٣٢٥

فَوْقَهُمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ {٦٦} ﴿﴾ فالجملة شرطية أيضا ؛ شرطها إقامة التوراة والإنجيل و(ما انزل اليهم من ربهم) جزاؤها أن يأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم. أي تفتح عليهم أرزاق السماوات والأرض.^١ وليس هذا من باب البركات فقط و إنما من باب النظام المتكامل في الكتب السماوية والصالح للحقبة الزمنية التي خصصت لها ، مما يجعل ذلك النظام انتفاعاً مما في السماوات وما في الأرض. ولكن أداة الشرط (لو) حرف امتناع لامتناع. أي لم يقيم أهل الكتاب التوراة والإنجيل ولا ما انزل اليهم من ربهم ، فلم يأكلوا من فوقهم ولا من تحت أرجلهم.

ان هذا السياق يعرض مسألتين لو أنهم حققوها لانقلبت أحوالهم في الآخرة و الدنيا ؛ لو أنهم آمنوا و اتقوا لمحت السيئات و ادخلوا الجنة وهذا انقلاب حالهم في الآخرة. ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل و ما انزل اليهم من ربهم لانفتحت لهم أرزاق السماوات والأرض ، وبذلك ينقلب حال الدنيا. وهذا خير مهاده الآية التبليغ: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ {٦٧} ﴾ و نلاحظ أن الآية تنصوي تحت قضيتين مهمتين: التبليغ عن (ما انزل إليك من ربك) وان هذا التبليغ هو كمال الرسالة وتمام النعمة. فان لم يكن هذا التبليغ يا رسول الله فسوف تكون رسالة الله غير كاملة ، فكما أن التوراة والإنجيل لم يكونا كاملين ما لم يقيم معهما ما انزل اليهم من ربهم وهو (الإيمان بالنبى المنتظر) فسوف لا يقام القرآن ما لم يقيم ما انزل إليك من ربك وهو (التبليغ بالولاية) فان لم يحصل هذا سيفوت الأمة أن تأكل من فوقها ومن تحت أرجلها. ثم الإشارة إلى الآية السابقة والتي تخص المسلمين وهي أنكم أيها المسلمون إن لم تؤمنوا لم تتقوا فسوف لن يكون الغفران ولن تكون جنة النعيم. ثم تأتي الآية الساندة البعدية: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ {٦٨} ﴾ قل يا محمد لأهل الكتاب و ليسمع الجميع لستم على شيء ، أي كأنكم لم تفعلوا شيئا مهما قدمتم من شيء ترونه خيرا إلى أن تقيموا التوراة والإنجيل و(ما انزل إليكم من ربكم) فحتى إقامة التوراة والإنجيل دون التعليمات الألهية الأخرى المنزلة إليكم عن طرق أنبيائكم وهي التبشير بمحمد ﷺ لا تنفع بل كأنها غير موجود و تجدون أنفسكم لستم على شيء. ثم تتحول الآية لخاطب الرسول لإبلاغه بان (ما انزل إليك) في قضية التبليغ سيزيد الكثير ممن حولك طغيانا وكفرا. وواضح أنّ المقصود ممن حوله غير المؤمنين وان ظهورا مسلمين لان الآية

تقول تزيدنهم طغيانا وكفرا. أي هم طغاة فيزادوا طغيانا وهم كفرة فيزدادوا كفرا. ثم المواساة للرسول وكأنه نعي لأمته مستقبلها فسوف لن يقام القرآن وما انزل إليك بكامله فلا تأس على القوم الكافرين منهم ، فانك بلّغت وعصمك الله من الناس ، فأقمت معهم مدة من الزمن بعدها فقد أدت الحجة وهذا كتاب الله قائم معهم وهذا ما انزل إليك من ربك تناقلته الأجيال. والله ولي التوفيق.

النتائج

توصل البحث إلى ما يأتي :

١. إنّ سورة المائدة مترابطة في آياتها ترابطاً سياقياً من شأنه أن يسبغ دلالات على دلالات المفردات والتراكيب ، ولا سيما عندما يستعين الدارس بتفسير القرآن بالقرآن وبالسنة المطهرة ، وبالأساليب اللغوية العربية.
٢. إنّ نص إكمال الدين وإتمام النعمة يرتبط ارتباطاً موضوعياً وثيقاً بآيتي الولاية والتبليغ. ليكونا أرضية صلبة لعقد ولاية الإمام علي (عليه السلام).
٣. إنّ السياق المساند لتلك النصوص الثلاث يدخل مفاهيم توكيدية أخرى على حقيقة ولاية الإمام علي وأبعادها لو تطبقت على أرض الواقع. و سلبياتها حينما لم تطبق.
٤. في هذا درس مادة غنية ثرة للدراسة. أدعو نفسي والباحثين إلى اسبار غور دراسة هذه النصوص في ضوء سياق سورة المائدة بكاملها.

المصادر

- ١- أسباب نزول القرآن (الواحدى): الواحدى، علي بن أحمد (القرن: الخامس)
- ٢- البرهان في تفسير القرآن / البحراني، السيد هاشم / (القرن: الحادي عشر) تاريخ الطبع: ١٤١٦ هـ
- ٣- البنية الخطابية الفنية في مقدمة سورة المائدة / مجلة الفتح ، العدد (.....) الصادر في (.....) كلية التربية الاساسية / جامعة ديالى.

- ٤ - التبيان في تفسير القرآن / محمد بن الحسن الطوسي ، (القرن: الخامس) دار إحياء التراث العربي
- ٥ - تاريخ العرب في الجاهلية وعصر الدعوة الإسلامية.د. رشيد الجميلي.
- ٦ - تاريخ النقد الادبي عند العرب / طه احمد ابراهيم / دار الحكمة: بيروت.
- ٧ - جامع البيان - أبي جعفر محمد ابن جرير الطبري.
- ٨ - جواهر الحسان في تفسير القرآن / عبدالرحمن بن محمد الثعالبي (القرن: التاسع) دار إحياء التراث العربي / تاريخ الطبع: ١٤١٨ هـ
- ٩ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم / السيد محمود الألوسي (الثالث عشر) دار الكتب العلمية / تاريخ الطبع: ١٤١٥ هـ
- ١٠ - صحيح البخارى - أبي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري.
- ١١ - الغدير - الشيخ عبد الحسين أحمد الأميني النجفي.
- ١٢ - الفصول المهمة في أصول الأئمة - الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي.
- ١٣ - في ظلال القرآن. سيد قطب
- ١٤ - الكافي - الشيخ أبي جعفر محمد بن يعقوب بن اسحاق الكليني الرازي
- ١٥ - الكشف عن حقائق غوامض التنزيل محمود الزمخشري (القرن: السادس) دار الكتاب العربي / تاريخ الطبع: ١٤٠٧ هـ
- ١٦ - الميزان في تفسير القرآن / محمد حسين الطباطبائي (الرابع عشر) مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين في الحوزة العلمية بقم
- ١٧ - الموسوعة الحرة (ويكيبيديا) على شبكة الانترنت